دلائل... بلا دليل

ورقة علمية في:

(المبادئ العقلية الأولية.. أهميتها وخطورة الطعن فيها)

أحمد محمد حلمي عبده

شبكة الألوكة
www.alukah.net

دلائلُ ... بلا دليل

ورقة علمية في:

(المبادئ العقلية الأوليةُ .. أهمِّيتُها وخطورةُ الطعنِ فيها)

الباحث:

أحمد بن محمد بن حلمي بن عبده (آل الحتَّة)

دكتوراه الدعوة والثقافة الإسلامية ـ جامعة الأزهر.

إمام وخطيب ومدرس بوزارة الأوقاف المصرية.

بحثٌ .. له أصلٌ:

«ورقةٌ علميةٌ تقدَّم بها الباحث لأكاديمية "صناعة المحاور"؛

وذلك لاستكمال متطلبات الدارسة فيها

ثم جرى فيها وعليها قلمُ الإضافة والتعديل والترتيب».

مقدِّمة

الحمد لله؛ حمدَ الباحثين عن رِضاه، وأُصلي وأُسلِّم على رسوله ومصطفاه؛ محمَّدٍ وآله وصحبه ومن والاه.

أمَّا بعدُ:

فقد منَّ الله تعالى على الإنسان بِمنَنٍ كثيرة؛ مِن أجلِّها وأعظمِها تعليمُه البيان، فقال جلَّ ذِكره: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾[الرحمن]، فيستطيع الإنسانُ أن يُعْرِبَ وأن يُفْصِح عمّا في نفسه ووجدانه، وكذلك يستطيع الجواب عن سؤال مَن سأله؛ فليس كالعجماوات من الدوابِّ التي لا تعقلُ ولا تفهمُ مُرادُ من يَنْعِقُ بها أو يُنادي عليها. وكذلك من النِّعَم الجليلة التي أنعم الله بها عليه هدايتُه وهو في مَهدِه إلى ما فيه منفعتُه ومصلحتُه بل وإلى ما به كمالُه البشري؛ فقد قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه][1] وقال أيضا: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى][2]، وكذلك من النِّعم الجزيلة عليه: أنْ كان في أحسن تقويم وهيئةٍ وخِلقةٍ؛ فقد قال جلَّ ذِكرُه: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ﴾[التين] فما أعظم تلك النِّعم التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان!.

ومع ظهور تلك النِّعم وهذه الدلالات الباهرات على قدرة الله تعالى، وعلى إبداعه في تلك النفوس ما به قِوامُ حياتها؛ كان من الظواهر المرَضيّة التي يجب على الجميع السعْيُ في علاجها، ثم اجتثاثُها من جذورها؛ إذْ أنَّ آثارها عامَّةٌ وأخطارَها جثيمةٌ، فهي ظاهرة تنكَّرتْ لِما هو في النفوس مركوز؛ من تلك الهدايات وهذه الدلالات والإدراكات، وهي "**ظاهرة**

---

(1) قال الرازي في تفسيره لهذه الآية: «واعْلَمْ أنَّهُ يُشْبِهُ أنْ يَكُونَ الخَلْقُ عِبارَةً عَنْ تَرْكِيبِ القَوالِبِ والأبْدانِ، **والهِدايَةُ عِبارَةً عَنْ إيداعِ القُوى المُدْرِكَةِ والمُحَرِّكَةِ في تِلْكَ الأجْسامِ** وعَلى هَذا التَّقْدِيرِ يَكُونُ الخَلْقُ مُقَدَّمًا عَلى الهِدايَةِ».

(2) وكذلك قال الرازي في تفسيره عن الهداية في تلك الآية: «عِبارَةٌ عَنْ **خَلْقِ تِلْكَ القُوى في تِلْكَ الأعْضاءِ بِحَيْثُ تَكُونُ كُلُّ قُوَّةٍ مَصْدَرًا لِفِعْلٍ مُعَيَّنٍ، ويَحْصُلُ مِن مَجْمُوعِها تَمامُ المَصْلَحَةِ**، ولِلْمُفَسِّرِينَ فِيهِ وُجُوهٌ، قالَ مُقاتِلٌ: هَدى الذَّكَرَ لِلْأُنْثى كَيْفَ يَأْتِيها، وقالَ آخَرُونَ: هَداهُ لِلْمَعِيشَةِ ورَعاهُ، وقالَ آخَرُونَ: هَدى الإنْسانَ لِسُبُلِ الخَيْرِ والشَّرِّ والسَّعادَةِ والشَّقاوَةِ، وذَلِكَ لِأنَّهُ جَعَلَهُ حَسّاسًا دَرّاكًا مُتَمَكِّنًا مِنَ الإقْدامِ عَلى ما يَسُرُّهُ والإحْجامِ عَمّا يَسُوءُهُ»

الإلحاد" الذي يتمحور أمرُه: **حول التنكُّر لما هو في النفوس البشرية مركوز**، فقد أدَّى بهم هذا الموقف من تلك القضايا الضرورية إلى القول "**بنفي** وجود الإله المعبود الحق الخالق سبحانه وتعالى **والقول بإله الصدفة**"، وكذلك القول المترتِّب على ذلك في المذهب الرُّبوبي "الذي تنكَّر للنبوات" أو القول بعدم إمكانية الوصول إلى المعرفة اليقينية في المذهب "اللا أدري"؛ فهذه الدركات والظلمات كلها ناتجٌ عن هذا الموقف تلك الأمور اليقينية.

«إذِ اطراحُ المبادئ العقلية الأولية مُفضٍ في الحقيقة إلى اطراح الثقة في أدوات الرصد والملاحظة؛ بل وإسقاط الثقة في المنهج العلمي ذاتِه، والذي يُراد أن يكون هو الطريق الأوحد للمعرفة وِفق النظرة العِلموية المغالية إذ المنهج العلمي مؤسس على مقولات لا يمكن البرهنةُ عليها من خلال المنهج العلمي ذاته، وإلا لزم الدور، فالقول بأن المعرفة لا يمكن تأسيسها إلا على المعرفة الطبيعة قولٌ مُتناقض لا ينبغي أن يكون مقبولاً عند العقلاء»[1].

وعليه: فقد كان لهذا الموضوع أهميةٌ كبيرة في المجال المعرفي، ولهذه الأهمية يُمكن أن يكون بسببها حجرَ الزاويةِ أو الأساسَ في التكوين المعرفي للإنسان، وليس هذا أمراً مُستغْربا، فإن طُرق المعرفة الإنسانية متنوعة؛ فمنها ما هو عقلي، ومنها هو خبري، ومنها ما هو حِسِّيٌ؛ وأسعد الأمم رُقيًّاً وتحضراً من قامت نهضتها على تلك الطرق مجتمعةً، يقول ابن تيمية ـ عليه رحمة الله تعالى ـ: «أكْملُ الأممِ علماً المقرون بالطرق الحسية والعقلية والخبرية؛ فمن كذَّب بطريق منها فاته من العلوم بحسْب ما كذب به من تلك الطرق»[2].
وقال تلميذه ابن القيم: «أَنَّ طُرُقَ الْعِلْمِ ثَلَاثَةٌ: الْحِسُّ، وَالْعَقْلُ، وَالْمُرَكَّبُ مِنْهُمَا، فَالْمَعْلُومَاتُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: أَحَدُهَا: مَا يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ، وَالثَّانِي: مَا يُعْلَمُ بِالسَّمْعِ، وَالثَّالِثُ: مَا يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ وَالسَّمْعِ»[3] فليستْ المعارفُ الإنسانيةُ قائمةً على الحِسِّ فقط، أو على الحِسِّ والعقل معاً؛ فهناك أمور غائبةٌ عنَّا لا نستطيع إدراكها إلا من طريق ثالث ألا وهو الخبر؛ فإنَّ: «المعلومات الغائبة التي لا تُدرك إلَّا بالخبر أضعاف أضعاف المعلومات التي تدرك بالحسِّ والعقل، بل لا نسبة بينهما بوجهٍ من الوجوه. ولهذا كان إدراك السمع أعمَّ وأشمل من إدراك

(1) مليشيا الإلحاد "مدخل لفهم الإلحاد الجديد" عبد الله بن صالح العجيري. ص: (161). ط: مركز تكوين.
(2) درء تعارض العقل مع النقل (7/ 334)، نقلاً عن: مدخل إلى نظرية المعرفة؛ أحمد الكرساوي، ص: (110). ط: مركز تكوين.
(3) مختصر الصواعق المرسلة لابن الموصلي ص(274).

البصر، فإنه يُدرك الأمور المعدومة والموجودة والحاضرة والغائبة، والعلوم التي لا تدرك بالحسِّ. وهذا حُجة مَن فضَّل السمع على البصر من النُّظار وغيرهم، وخالفهم آخرون، فرجَّحوا البصر على السمع لقوة إدراكه وجزمه بما يدركه، وبُعده من الغلط»[1].

وكذلك هناك معارف عقلية وضعها الله تعالى في عقولنا لا نستطيع أن نغضَّ الطرف عنها، أو أن نّتعامى عن أوَّليتها في نفوسنا، فهي علومٌ ومعارفُ لا تستطيع البشرية من أدنى دركاتها إلى أكمل درجاتها رُقياً التغافلَ عنها: «فقد وضع الله سبحانه في العقول والفِطَر استحسانَ الصدق، والعدل، والإحسان، والبرِّ، والعفّة، والشجاعة، ومكارم الأخلاق، وأداء الأمانات، وصلة الأرحام، ونصيحة الخَلْق، والوفاء بالعهد، وحِفْظ الجوار، ونَصر المظلوم، والإعانة على نوائب الحقّ، وقِرَى الضيف، وحمل الكَلّ، ونحو ذلك. ووَضَع في العقول والفِطَر استقباح أضدادِ ذلك، ونسبةُ هذا الاستحسان والاستقباح إلى العقول والفِطَر كنسبة استحسان شربِ الماء البارد عند الظَّمَأ، وأكل الطعام اللذيذ النافع عند الجوع، ولُبْس ما يُدْفِئُه عند البَرْد، فكما لا يمكنه أن يَدْفع عن نفسه وطبعه استحسان ذلك ونفعه، فكذلك لا يَدْفَعُ عن نفسه وفِطرته استحسانَ صفاتِ الكمال ونفعها واستقباح أضدادها.

ومن قال: **إن ذلك لا يُعْلَم بالعقل ولا بالفطرَة، وإنما عُرفَ بمجرَّد السمع، فقولُه باطل،** وقد بيّنّا بطلانه في كتاب «المفتاح» من ستين وجهًا، وبَيّنا هناك دلالةَ القرآن والسنة والعقول والفِطَرِ على فساد هذا القول»[2] .

فالمعرفة الإنسانية مبناها على هذه الأمور الثلاثة مجتمعةً؛ فلا يَصح إهمال أحدها أو إلغاؤه، وإلا فاتنا من العلوم والمعارف ما لا يُحصر.

وفي القرآن الكريم إشارات جليَّة عن تلك الروافد المعرفية للعقل البشري؛ فقد ذكر الله سبحانه وتعالى في غير ما آية من كتابه: (العقل ـ أو القلب أو الفؤادـ)، وكذلك: (السمع) و(البصر). وهذه الروافد أو تلك الآلات؛ هي التي بها يُدرك الإنسان معارفَه وعلومَه، فقد قال الله تعالى عن الكافرين: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠

(1) مختصر الصواعق المرسلة لابن الموصلي؛ ص: (277)

(2) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ج2 ص: (861) ط: دار عطاءات.

فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك]. فالذي أرْداهم وجعلَهم في أصحاب السعير هو **عدمُ استعمالهم للوازم هذه الآلات التي أعطاها الله إيَّاهم**؛ فلم يكونوا مجانيين بلا عقول أو لم يكونوا كذلك صُمًّا؛ بل كانت عندهم تلك الآلات التي تؤهلهم لقبول الحقِّ والإذعان له. وقال سبحانه أيضا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة] وقال كذلك: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية] فإذا ما كان الختمُ والطبعُ على هذه الآلات فلن يصل إليها الإيمانُ وكذلك لن ترى نور الحق والإيمان؛ إذْ كيف يكون ذلك وقد سُدَّت هذه المنافذ!!. وقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأحقاف]، "فالأبصار والأسماع والأفئدة" لم تنفعهم إذْ عطلوها عن لوازمها. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء] وقد ذكر الرازي في تفسيره لهذه الآية: «أنَّ العُلُومَ إمّا مُسْتَفادَةٌ مِنَ الحَواسِّ، أوْ مِنَ العُقُولِ. أمّا **القِسْمُ الأوَّلُ**: فَإلَيْهِ الإشارَةُ بِذِكْرِ السَّمْعِ والبَصَرِ، **فَإنَّ الإنْسانَ إذا سَمِعَ شَيْئًا ورَآهُ فَإنَّهُ يَرْوِيهِ ويُخْبِرُ عَنْهُ.**

وأمّا **القِسْمُ الثّانِي**: فَهو العُلُومُ المُسْتَفادَةُ مِنَ العَقْلِ وهي قِسْمانِ: البَدِيهِيَّةُ والكَسْبِيَّةُ، وإلى العُلُومِ العَقْلِيَّةِ الإشارَةُ بِذِكْرِ الفُؤادِ»[1]؛ وفي معنى سؤال هذه الحواس يقول الشوكاني: «ومَعْنى سُؤالِ هَذِهِ الجَوارِحِ أنَّهُ يَسْألُ صاحِبَها عَمّا اسْتَعْمَلَها فِيهِ **لِأنَّها آلاتٌ**، والمُسْتَعْمِلُ بِها هو الرُّوحُ الإنْسانِيُّ، فَإنِ اسْتَعْمَلَها في الخَيْرِ اسْتَحَقَّ الثَّوابَ، وإنِ اسْتَعْمَلَها في الشَّرِّ اسْتَحَقَّ العِقابَ»[2]. فالفؤاد هنا للدلالات العقلية وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ

(1) مفاتيح الغيب "التفسير الكبير" للفخر الرازي. ج20، ص: (341). وهذا من قبيل الاستشهاد على العلوم العقلية والاستدلال بها، وليس تأييدا للرازي في قانونه الذي عارض به الوحي؛ إذ قد قدَّم عليه العقل. وقد تولى الرد عليه ابن تيمية في كتابه النفيس "درء تعارض العقل مع النقل" وغيره.

(2) فتح القدير للشوكاني، ج3، ص: (271)

أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ **وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ** لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: 78].

وقد أنكر الله تعالى على الكافرين تعطيل تلك الحواس؛ فقال: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج] فالقلب يعقل ويفهم ويتفكَّر ويتعظ، وكذلك الآذان تسمع ما يُلْقَى إليها من أخبار؛ فتدفعها إلى الإذعان والاعتبار كقول الله تعالى: ﴿أَوَ لَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۖ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾ [السجدة]. فمَن سمع أخبار السابقين وعلِم بما حلَّ بهم من العذاب لا شكَّ أنه سيعتبِر ولن يسير في نفس طريقهم؛ ولذلك قال الله تعالى لمشركي قريش بعد ذِكر أخبار السابقين وما حلَّ بهم: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ٩ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾[1].

وكذلك نجد في القرآن الكريم أن الله تعالى نفى عن الذين لم يتبعوا كلام الأنبياء ـ المبني على الخبر والسمع ـ العِلمَ؛ مع أنَّ لديهم من العلوم العقلية والحسية ما أثبته لهم كذلك، فقال جلَّ ذِكره: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم]، وقال أيضاً: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [غافر] فعندهم عِلمٌ محسوسٌ أو ملموسٌ أو مظنونٌ عارضوا به بيِّنات الأنبياء ومع ذلك العلم وصفهم الله تعالى

(1) قال ابن القيم: «قالَ الفراء لتحفظها كل أُذن فتكون عظة لمن يَأْتِي بعد، فالوعي تُوصَف بِهِ الأذن كَما يُوصف بِهِ القلب. يُقال: قلب واع وأذن واعِيَة لما بَين الأذن والقلب من الارتباط، فالعلم يدْخل من الأذن إلى القلب فَهي بابه، والرَّسُول الموصل إليه العلم كَما أن اللِّسان رَسُوله المُؤَدي عَنهُ. وَمن عرف ارتباط الجَوارِح بِالقَلْبِ علم أن الأذن أحقها أن تُوصَف بالوعي، وأنها إذا وعت وعى القلب. وَفِي حَدِيث جابر في المثل الَّذِي ضَربته المَلائِكَة للنَّبِي ولأمته وقَول الملك لَهُ "اسْمَع سَمِعت أذنك وعقل قَلْبك"فَلَمَّا كانَ القلب وعاءا، والأذن مدْخل ذَلِك الوِعاء وبابه كانَ حُصُول العلم مَوْقُوفا على حسن الِاسْتِماع وعقل القلب، والعقل هو ضبط ما وصل إلى القلب وإمساكه حَتَّى لا يتفلت مِنهُ» من تفسير ابن القيم.

بأنهم "لا يعلمون". وذلك لأنهم أغلقوا على أنفسهم هذا الباب المعرفي الذي فيه من العلوم أضعاف أضعاف ما علموه بحواسِّهم أو بظنونهم.

فليستْ المعرفة البشرية قائمةً على ما تُمليه العقول فقط أو الأخبار والحواس فقط؛ بل هي معرفة قائمة على هذه الأركان مجتمعة متآلفةً متعاضدةً لا متناقضة. ولم يأت في الشريعة الإسلامية ما يُناقض تلك الروافد أو يُخالفها؛ بل جاءت مُستخدمةً لها في توطيد أركانها؛ بل وفي تأسيس بُنيانها. كما سيظهر إن شاء الله تعالى بعد. فالعلوم العقلية البديهية التي منحها الله تعالى الإنسان كان لها الأثر الكبير في هداية الخلق إلى خطاب الخالق والإذعان له.

وإلا .. فالمُنكِرُ لها سيكون خِطابه وحديثُه نوعٌ من السفسطة وجحودٌ لما هو مركوز في خِلقتِه وجبلَّته؛ ومثالُه كمثال مَن ادَّعى لنفسه الربوبية فرعون؛ فقد ذكر الله تعالى قول موسى عليه الصلاة والسلام له: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء]، وكذلك قوله تعالى عنهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل].

ولأجل هذا كان الحديث هنا عن هذه المبادئ العقلية والمعارف الأولية التي وهبها الله تعالى ذلك المخلوق الإنساني كي يستثمرها في بناء عقائده ومعارفه.

ومما لاشك فيه حينئذٍ من أهمية الحديث عن هذه المبادئ والمعارف الأولية؛ ولكنه سيكون حديثاً يكتنفُه شيء من الغموض؛ إذ الحديث عن الواضحات المُهمَّات ربما يجعلها من المُبهَمَات[1]. فأقول وبالله تعالى التوفيق.

سيكون الحديث في هذا البحث في النقاط التالية:

(1) قال أبو حامد الغزالي: «فتكلُّف الدليل على الواضحات يزيدها غموضاً ولا يفيدها وضوحاً» الاقتصاد في الاعتقاد، ص: (95).

أولاً: تعريف المبادئ العقلية الأولية.

بعيداً عمَّا اعتاده الباحثون في أبحاثهم؛ من تفكيكٍ للمفردات التي يتكوَّن منها عنوانُ بحثِهم وذلك تحديداً لماهيَّته، وضبطاً للشطط الذي قد يطرأ على أبحاثهم؛ فإن مفردات (المبدأ، العقل، الأوَّلي)؛ من الواضحات لدى المتخصصين؛ ولذلك سوف أُعرض عن تفاصيل تعريفاتها، فمظانُّها لديهم معلومة معرفة، وهذه الورقة العلمية لا تتسع لمثل هذا، فمثلاً: (العقل) قد عرفه الكثيرون وأفاضوا في ذِكر ما يتعلق به[1]؛ ولكنِّي أُعرِّج فقط على تعريفها مُعرضاً عمَّا ذكرتُ:

يقول ابن القيم العقل: « والعقلُ عقلان: **عقلٌ غريزيٌّ**؛ وهو أبُ العلم ومربِّيه ومُثْمِرُه، **وعقلٌ مُكتَسبٌ مستفادٌ**؛ وهو ولدُ العلم وثمرتُه ونتيجتُه»[2]. ويفصِّل ابن تيمية رحمه الله تعالى هذين النوعين ويجعلهما أربعة؛ فيقول: «**أحدها:** علوم ضرورية يفرق بها بين المجنون الذي رفع القلم عنه وبين العاقل الذي جرى عليه القلم فهذا مناط التكليف. **والثاني:** علوم مكتسبة تدعو الإنسان إلى فعل ما ينفعه وترك ما يضره فهذا أيضا لا نزاع في وجوده .. **الثالث:** العمل بالعلم يدخل في مسمى العقل أيضا بل هو من أخص ما يدخل في اسم العقل الممدوح .. الرابع: الغريزة التي بها يعقل الإنسان»[3].

وأمّا **المبدأ**. فأقول هو: «"اسمُ ظرْفٍ مِن "بَدَأ"، ويُجْمع على "مبادئ"، وهو في الأصْل مكان البداءة في الشيء، أو زمانه، فمبدأُ الشيء: أوَّلُه، ومادته التي يتكوَّن منها، كالطِّين مبدأُ الإنسان؛ كما قال تعالى: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: 7]، أو مادته التي يتركَّب منها، كما نقول: الحروف مبدأُ الكلام، ومبادئ العلم، أو الخُلق، أو الدستور، أو

(1) العلماء الذين كتبوا في تحديد معنى العقل، ومنزلته في الإسلام، وكيفية الاستدلال به، والعلوم العقلية، وخطر الغلو فيه وخطر الإهمال له؛ كثيرون جدا. وممن وقفتُ لهم على كتابة في هذا الموضوع م/ عبد الله العجيري في كتابه "ينبوع الغواية الفكرية" فقد ذكر في مقدمة المزلق الخامس (العقل) من مزالق هدر النصوص الشرعية ما يزيد على الأربعين مرجعا في هذا الصدد. ينظر كتابه هذا: ص (491 ـ 554).

(2) مفتاح دار السعادة. ج1، ص: (323، 324).

(3) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية. ص: (261). مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة.

القانون: قواعدُه الأساسية التي يقومُ عليها، ولا يخرج عنها"»[1]. وهذا التعريف لهذه المُفردة كاشف لما ينبغي أن تكون عليه الأدلة الأولية ـ موضوع هذا البحث ـ من حيث مكان ابتدائها؛ بمعنى أنها البداية الأولية لأي عملية من عمليات الاستدلال، فتبدأ من هذه الأدلة التي هي موصوفة بالأولية. والتي هي:

الأولية: نسبة إلى الأول؛ فيُقال دليل أوَّلي، وأدلة أوليَّة، فهي أولية لها بدايةٌ لم يَسبقها شيء في النفس البشرية.

وأمَّا تعريفها جميعا كمصطلح؛ فكالتالي:

ينقلُ د/ عبد الله القرني تعريفين لها؛ **أولهما:** عن ابن سينا، وهو: «قضايا ومقدِّمات تحدث في الإنسان من جهة قوَّته العقلية؛ من غير سبب يُوجِب التصديق بها إلا ذواتها»، **وثانيهما:** للسَّاوي ـ صاحب البصائر النّصيرية ـ بقوله: «هي القضايا التي يُصدِّق بها العقل الصريح لذاته ولغريزته؛ لا لسبب من الأسباب الخارجة عنه»[2]، بينما يذكر د/ عبد الله الدعجاني تعريفَ ابن النفيس لها؛ فيقول: «هي القضايا التي يوجبها العقل الصريح لذاته وغريزته؛ فلا يتوقف الجزم بها إلا على حصول التصور لحدودها»، وكذلك تعريفَ أبي البقاء الكفوي؛ وهو: «هي المعرفة الحاصلة ابتداءً في النفس لا بسبب الفِكْر»[3].

ومن خلال هذه التعاريف؛ فقد اشتملت على سِماتٍ بارزةٍ لها؛ فهي: قضايا ومُقدِّمات، حاصلةٌ في نفس الإنسان ابتداءً، لا يتوقف حصولُها هذا على الفِكْر والنظر، بل يتوقف على صِحَّةِ القوة العقليّة لدى من حصلتْ عنده تلك المبادئ، ويتوقف كذلك على صِحَّة التصور لحدودها؛ ولذلك فلا يتوقف حصولها في النفس على سبب خارجيٍّ عنها.

وعبَّر أحدُ الأساتذة عنها؛ بقوله: «"المعلومات السابقة وأثرها في الإدراك"؛ .. ثم قال و: على ضوئها يستطيع العقل أن يُعطي حكما على الواقع من خلال الحواس، وعلى ضوئها

(1) من رسالة الماجستير "مبدأ الظفر بالحق"؛ للباحث: البخاري إبراهيم وهيب، موقع الألوكة رابط: (https://www.alukah.net/fatawa)

(2) المعرفة في الإسلام؛ مصادرها ومجالاتها؛ د/ عبد الله القرني، ص: (297).

(3) منهج ابن تيمية المعرفي، د/ عبد الله الدعجاني، ص (337، 338) ط: مركز تكوين. السعودية

يستطيع أن يستنتج في عملية القياس أو الفِكر؛ إذ أن هذه المعلومات يقينية، ولا خلاف فيها بين العقلاء، وهي ليست مغروسة في الفطرة أو مخلوقةً كمعلومات جاهزة عند ولادته وإنما هي ناشئة ومتكونة بعد الولادة»[1]. فـ: «بغير تلك المعارف الضرورية والتي يُمكن أن تبتني عليها المعرفة النظرية؛ فلا سبيل لتقديم رؤية فلسفية متكاملة يُمكن من خلالها تسويغ عملية الاستدلال، ولا ممارسته، ومآلات مثل هذه الرؤية التزام طريقة سفسطية تطرح الثقة بالمعقولات البشرية كافة»[2]. فهذه المعلومات السابقة هي أصلٌ للعلوم النظرية المترتِّبة عليها، فإذا ما طعَن الطاعنُ فيها فهو بالضرورة يطعن في كل عِلمٍ نظري مترتِّبٍ عيها: «ومعلوم أن العلوم الضرورية أصل للعلوم النظرية، فإذا جوَّز الإنسان أن يكون ما علِمه غيرُه من العلوم الضرورية باطلاً جوّز أن تكون العلوم الضرورية باطلة، وإذا بطلتْ بطلت النَّظرية»[3].

ثانياً: مصدرية هذه المبادئ.

هذه المبادئ كما هو معلوم من تلك النصوص السابقة؛ قد وُضِعتْ في النفس الإنسانية وحصلتْ لها من غير سبب، فكأن واضعاً وضعها وخالقاً خلقها فيها؛ إذ لم تَسْعَ النفسُ في اكتسابها، فلم تكتسب النفس هذه المعارف بذاتها وإنما الذي جعلها فيها إنما هو الله سبحانه وتعالى. وهذا يجعلنا مضطرين إلى الحديث **عن محورين:**

الأول: الفِطْريةُ المعرفية للمبادئ العقلية الأولية. فالفطرة التي فطر الله عليها الخلق لها مكونات؛ جعلها سبحانه وتعالى في النفس الإنسانية، والتي من خلالها يبني الإنسانُ عليها منظومتَه المعرفية والأخلاقية والسلوكية؛ فهناك: "النزعة الأخلاقية، والجانب الغريزي، والشعور بالإرادة الحرة، والشعور بالغائية الذي يتعلق بالإجابة على سؤال المبدأ، والمصير، والسبب الوجودي للإنسان؛ ومنها كذلك هذه المبادئ العقلية الأولية؛ فهذه كلُّها مستويات للدلالة الفطرية[4].

---

(1) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، أ.د/ راجح عبد الحميد الكردي، ص: (613، 614) مكتبة المؤيد، السعودية

(2) شموع النهار عبد الله بن صالح العجيري.؛ ص: (52) ط: مركز تكوين، الطبعة الأولى (2016م)

(3) درء تعارض العقل مع النقل لابن تيمية. ج1، ص: (183).

(4) يُنظر في بيان هذه المستويات، (شموع النهار؛ عبد الله بن صالح العجيري، ص: (39 ـ 84).

ـ وقد يستشكل البعض هذا الكلام؛ فيفهم منه التعارضَ بينه وبين قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: 78] ودَرْأً لهذا الذي قد يُفهم؛ فإن جملة: (لا تعلمون شيئاً) في الآية تفسيرها: «"في محل نصب على الحال"، وقيل: المراد لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق، وقيل لا تعلمون شيئا مما قضى به عليكم من السعادة والشقاوة، وقيل لا تعلمون شيئا من منافعكم، والأولى التعميم لتشمل الآية هذه الأمور وغيرها اعتبارا بعموم اللفظ، فإن شيئا نكرة واقعة في سياق النفي»[(1)]. وعليه فليس معنى فِطريَّة هذه المعارف أنها حاصلة في النفس من لحظة الولادة؛ وإنما فِطريتها من جهة كونها قوةً مُودعةً في النفس تقتضي هذا المعنى متى ما توفرت شروط ظهوره وانتفت كذلك موانع هذا الظهور؛ فالأمر كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية «فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه ومحبته وإخلاص الدين له، وموجبات الفطرة ومقتضاها تحصل شيئا بعد شيءٍ بحسب كمال الفطرة إذا سلِمت عن المعارض»[(2)].

المحور الثاني: نظريتا (نزولُ المعرفة وصعودُها)[(3)].

فالنظرية القائلة بنزول المعرفة. أيْ: أن الله تعالى هو أصلٌ لكلِّ المعارف؛ فمِنْه سبحانه وتعالى تبدأ؛ فهذه النظرية تجعل الباحث كاشفاً عن أوجه الانسجام المعرفي بين الفطرة والحقائق المعرفية الأخرى؛ وليست هي عملية إنشاء وبناء للمعارف على وجه الاستقلال. **وهذه النظرية كذلك:** تكشفُ افتقار العلوم العقلية والفطرية كذلك إلى الوحي الإلهي كي تكتمل المعارف العِلمية والعَملية.

أما **النظرية القائلة بصعود المعرفة؛** فتقوم على أن أساس المعرفة وابتداءَها من النفس البشرية لا من الله تعالى، فأصحاب هذه النظرة المعرفية في سيرهم المنهجي **يبتدؤون من الضروريات العقلية أو الحسية التي يجعلونها أصل المعارف البشرية،** وينتهون بالعلم

(1) فتح القدير محمد بن علي الشوكاني ص: (794). دار المعرفة بيروت.

(2) شموع النهار عبد الله العجيري، ص: (30. 31) ويُنظر نص ابن تيمية في (درء تعارض العقل والنقل8/ 383)

(3) قد أحسن وأجاد، د/ عبد الله بن نافع الدعجاني في تفصيله لهاتين النظريتين وبيان آثارهما؛ سلبا وإيجابا، في كتابه عن ابن تيمية (منهج ابن تيمية المعرفي، ص: (69ـ 88) ط: مركز تكوين للدراسات والأبحاث.

الإلهي أو بما بعد الطبيعة، **ومن الآثار المترتبة على القول بهذه النظرية**؛ «القول باستقلالية العقل عن الوحي؛ فهو قولٌ باستغناء العقل عن الوحي بل يقولون بإلغاء الوحي، وتسييدُ العقل وإضفاء الحاكمية المعرفية عليه، كذلك فيه إخضاع للحقائق الشرعية إلى حكم العقل».

ثم إن العقول البشرية متفاوتة فيما بينها؛ فقد يكون الشيءُ عند شخص له مكانة وأهمية لا يقبل النقاش في حُسنها، وهو عند شخص آخر من القبح الذي تأباهُ نفسه، فقد سمعنا عن أناس يُبيحون نكاح المحارم بل والحيوانات ولا يرون في ذلك عيباً، وكذلك نرى مجتمعات ترى كشف العورات وارتكابَ المحرمات من التقدُّم؛ بينما في مجتمعات أخرى على العكس تماماً!! فلابد من معيارٍ أعلى يعود إليه الجميع.

ثالثاً: ما هي هذه المبادئ؟.

هذه المبادي العقلية الأولية كثيرة جدا، ومع ذلك فهي تعود إلى أربعة مبادئ؛ هي: «**الأول:** مبدأ الهوية، **الثاني:** مبدأ عدم التناقض، **الثالث:** مبدأ الثالث المرفوع، **الرابع:** مبدأ السببية»[1].

في حين يجعلها د/ عبد الله القرني؛ عائدةً: «إلى مبدئين أساسيين؛ وهما: **مبدأ عدم التناقض، ومبدأ السببية.**

ويشمل عدم التناقض عدم اجتماع النقيضين؛ وهو الذي يُسمَّى الوسط الممنوع، وعدم ارتفاع النقيضين؛ وهو الذي يُسمّى بالثالث المرفوع، وهذا هو معنى القول بأن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان.

كما يشمل مبدأ عدم التناقض مبدأ الذاتية؛ والمقصود به أن كلَّ شيء هو ذاته، أو الهوية والمقصود به أن كلَّ شيء هو هو، إذ إن كون الشيء هو ذاته يستلزم أنه غير ذاته؛ لأنه إذا كان موجوداً لم يصح أن يكون غير موجود، وإلا لزم الجمع بين النقيضين، إذ إن

(1) منهج بن تيمية المعرفي، ص: (341 -367).

عدم وجوده يناقض وجوده، فإذا تحقق وجودُه وكان له ذات وهوية تخصُّه لزم أن لا يرتفع ذلك الوصف عنه مع تحقق ذاته وهويته.

وأما مبدأ السببية: فيقوم على أن لكل حادث سبباً؛ إذ لا يمكن أن يكون وجود الحادث ذاتياً، وإلا لزم ألا يسبق وجوده عدم، كما لا يمكن أن يكون وجوده من غير سبب»[1].

وإذا جاز لنا أن نُشبِّه هذه المبادئ ـ سالفة الذِّكْر؛ والتي تعود إلى هذين الأصلين ـ **بالمبادئ العامة**؛ فإنه يدخل تحتمهما جملةٌ كبيرة من الضروريات؛ أمثال ما ذكر ابن حزم رحمه الله تعالى من البديهيات التي تهجم على النفس هجوما لا يُمكن دفعه؛ ومنها: «الجزء أقل من الكلِّ؛ أو أن الكلَّ أكبر من الجزء، والجسم لا يكون في مكانين، والجسمان لا يكونان في مكان واحد، وأن الطويل زائد على مقدار ما هو أقصر منه، وأن الغيب لا يعلمه أحد، تفريقها ـ أي النفس ـ بين الحق والباطل من الأخبار وأن فيها صِدْقا وكذباً، ولا يكون شيء إلا في زمان، ومعرفة أن للأشياء طبائع وماهيّة تقف عندها ولا تتجاوزها، ولا يكون فعل إلا بفاعل، ..)[2]. ويقول ابن القيم رحمه الله عن الإنسان: «في أصل الخِلْقة خُلِق خالياً ساذجاً لا عِلْم له بشيءٍ من المعقولات ولا المحسوسات البتة؛ فأول ما يخلق فيه حاسة اللمس فيدرك بها أجناساً من الموجودات .. ثم يُخلق له البصر فيدرك به الأشكال والألوان والقرب والبعد والصغر والكِبر والطول والقصر والحركة والسكون .. ثم ينفتح له السمع فيسمع الأصوات الساذجة والنغمات ثم يترقى في مدارك هذه الحاسة على التدريج حتى يسمع من البعد ما لم يكن يسمعه قبل ذلك .. ثم يُخلق فيه التمييز وهو طور آخر من أطوار وجوده فيُدرك في هذا الطور أُموراً أخر زائدة على المحسوسات لم يكن يُدركها قبل ذلك؛ ثم يترقى إلى طور آخر يدرك به الواجب والجائز والمستحيل، وأن حكم الشيء حكمُ مثله، والضد لا يجتمع مع نقيضه، والنقيضان إذا صدق أحدهما كذب الآخر ونحو ذلك من أوائل العلوم الضرورية»[3]. فلأجل أنها متعلقة بالحواس فما ينطبع في النفس البشرية عن

---

(1) المعرفة في الإسلام مصادرها ومجالاتها؛ د/ عبد الله القرني. ص: (297، 298).

(2) الفصل في الأهواء والملل والنِّحل ابن حزم الأندلسي. ج1/ ص: (16 ـ 17)، نقلاً عن الإلحاد للمبتدئين. د/ هشام عزمي. (مركز براهين لدراسة الإلحاد ـ دار الكتاب)

(3) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. ابن القيم (3/ 957ـ 958)، نقلاً عن مد خل إلى نظرية المعرفة ص: (118، 119).

طريق السمع أو البصر أو الذوق أو اللمس كلها علوم تهجم على النفس ولا يستطيع المرء دفعها ضرورة. فإن هذه الضروريات: «غير محصورة بعدد معين»[1].

رابعاً: أوصافٌ لازمة لهذه المعارف.

وبعد استعراض ما سبق يُمكن لنا استخلاص بعض الصفات اللازمة للمبادئ الأولية؛ والتي منها:

- **الضرورة:** «فهي صادقة ضرورية؛ يمتنع تصور نقائضها، ويمتنع البرهان عليها؛ برهانا مستقيما .. فهي لبيانها غير مفتقرة لبرهان». فكما يُقال: **يُستدلُّ بها ولا يُستدل عليها**. فـ: «معلوم أن العلوم الضرورية أصل للعلوم النظرية، فإذا جوز الإنسان أن يكون ما علمه غيره من العلوم الضرورية باطلاً جوز أن تكون العلوم الضرورية باطلة، وإذا بطلتْ بطلتِ النظرية، فصار قولهم مستلزماً لبطلان العلوم كلها، وهذا مع أنه مستلزم لعدم علمهم بما يقولونه، فهو متضمن لتناقضهم، ولغاية السفسطة»[2].
- **الكلية:** «فأحكام تلك الأوليات تنطبق على كلِّ وجود؛ سواء في الذهن والخارج»؛ فهي منطبقة على كلِّ شيء وفي كل زمان ومكان، فصدقها صدق مطلق[3].
- **الكثرة والوفرة:** ـ فقد ذُكِر آنفاً ـ في هذه الصفحة ـ وصفها؛ بأنها: **غير محصورة بعدد معين**؛ فـ: «من المعلوم أنه ليس كل ما يعرف بالعقل يكون أصلاً للسمع ودليلاً علي صحته، **فإن المعارف العقلية أكثر من أن تحصر**، .. وليس كل العلوم العقلية يعلم بها صدق الرسول صلي الله عليه وسلم»[4]. وهذا من نِعم الله تعالى على عباده؛ إذ جعل هذه المعارف بهذه الكثرة التي تُساعد الإنسان في الوصول إلى الحقِّ، وهذا إذا استخدم تلك الوسائل وهذه الآلات التي خلقها الله تعالى له مع تلك

---

(1) مدخل إلى نظرية المعرفة، الكرساوي. ص: (123).

(2) درء تعارض العقل مع النقل. ص: (183).

(3) يُنظر في هذين الوصفين: "العقل والوجود"؛ يوسف كرم، ص: (144). نقلاً عن: منهج ابن تيمية المعرفي؛ عبد الله الدعجاني، ص: (338، 339).

(4) درء تعارض العقل مع النقل، ج1 ص: (89).

المعارف؛ وإلا فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23].

خامساً: نسبية هذه المعارف.

مع القول بأن هذه العلوم من الضروريات التي لا ينفك عنها الإنسان في بنائه المعرفي؛ إلا أنها ليست على درجة واحدة من القطعية الدلالية، وذلك لأنها تختلف من شخص لآخر؛ ومن باحث لباحث، فليست القضية الضرورية دائماً ضرورية لكل الناس، وكذلك الشأن في القضايا النظرية، وفي تقرير ذلك يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى:

«كون العلم أو الدليل بديهياً أو نظرياً، قطعياً أو ظنياً، هو من الأمور النسبية الإضافية التي تختلف باختلاف المُدرِك المستدِل؛ فقد يكون قطعياً عند زيد، ما لا يعرفه غيره إلا بالنظر، ومن اعتقد أن القطع والظن صفة لازمة للدليل بحيث يشترك في ذلك جميع الناس فقد غلط وخالف الواقع والحس»[(1)].

ويقول أيضاً: «كون المقدِّمة يقينية أو غير يقينية، أو مشهورة أو غير مشهورة، أو مسلَّمة أو غير مُسلمة؛ أمور نسبية إضافية لها تَعرض بحسب شعور الإنسان بها»[(2)].

ويقول أيضاً: «فكون المسألة قطعية أو ظنية هو أمر إضافي، بحسب حال المعتقدين، ليس هو وصْفًا للقول نفسه، فإن الإنسان قد يقطع بأشياء علمها بالضرورة، أو بالنقل المعلوم صِدْقُه عنده، وغيره لا يعرف ذلك لا قطْعًا ولا ظنًّا، وقد يكون الإنسان ذكيًّا، قويَّ الذهن، سريع الإدراك، فيعرف من الحق، أو يقطع به ما لا يتصوره غيره، ولا يعرفه لا علمًا ولا ظنًّا، فالقطع والظن يكون بحسب ما وصل إلى الإنسان من الأدلة، وبحسب قدرته على الاستدلال، والناس يختلفون في هذا وهذا، فكون المسألة قطعية أو ظنية ليس هو صفة لازمة للقول المتنازع فيه، حتى يقال: كل من خالفه خالفَ القطعي، بل هو صفة لحال

(1) الرد على المنطقيين ابن تيمية ص: (13). نقلاً عن مدخل لنظرية المعرفة للكرساوي ص: (123).
(2) مجموع فتاوى ابن تيمية؛ (ج2/ 47). نقلاً عن منهج ابن تيمية المعرفي؛ الدعجاني، ص: (179).

الناظر المستدِل المعتقِد، وهذا مما يختلف فيه الناس»[1]. ويقول تلميذه ابن القيم عندما يُبين اختلافَ درجة الدليل بحسب درجةِ فهمِ المستدل: «وَهُوَ أَنَّ كَوْنَ الدَّلِيلِ مِنَ الْأُمُورِ الظَّنِّيَّةِ أَوِ الْقَطْعِيَّةِ أَمْرٌ نِسْبِيٌّ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْمُدْرِكِ الْمُسْتَدِلِّ، لَيْسَ هُوَ صِفَةً لِلدَّلِيلِ فِي نَفْسِهِ، فَهَذَا أَمْرٌ لَا يُنَازِعُهُ فِيهِ عَاقِلٌ، فَقَدْ يَكُونُ قَطْعِيًّا عِنْدَ زَيْدٍ مَا هُوَ ظَنِّيٌّ عِنْدَ عَمْرٍو»[2]. وليس الأمر إلى هذا الحدِّ فقط بل وإلى مسألة المعلوم من الدين بالضرورة من عدمها فقد قال ابن تيمية عليه رحمة الله تعالى ذلك بقوله: «فكون الشيء معلوما من الدين ضرورة **أمر إضافي فحديث العهد بالإسلام ومن نشأ ببادية بعيدة قد لا يعلم هذا بالكلية؛ فضلا عن كونه يعلمه بالضرورة** وكثير من العلماء يعلم بالضرورة أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد للسهو، وقضى بالدية على العاقلة، وقضى أن الولد للفراش وغير ذلك مما يعلمه الخاصة بالضرورة وأكثر الناس لا يعلمه ألبتة»[3].

ويزدادُ الأمر وُضوحاً في هذه المسألة؛ إذا ما أضفنا إلى الاحتمالات السابقة المؤثرة على ظهور الدليل وخفائه مسألةَ فسادِ الفِطر السليمةِ، والتي من شأنها التنكُّر لما هو مركوز فيها ومستقرٌّ؛ فعندها تحتاج إلى خِطاب ليس من قبيل التأسيس للمعرفة التي تنكَّرتْ لوجودها في النفس الإنسانية وإنما هو من قبيل التذكير بذلك الذي تناستْهُ. فبما أن: «العلوم الفِطرية حاصلة مع الفطرة وسلامتها، فقد يعرض للفطرة ما يُفسدها ويمرضها، فترى الحق باطلاً؛ كما في البدن إذا فسد أو مرض؛ فإنه يجد الحلوَ مرًّا، ويرى الواحد اثنين فهذا يُعالج بما يُزيل مرضه»[4].

فليس شرطاً كون هذه المعارف من المبادئ أو المعارف الفطرية أن تكون عند جميع الخلق بدرجة واحدة من الظهور أو الخفاء؛ فقد تكون بديهية عند شخص، وغيرُ ظاهرةٍ بل ومطموسة عند الآخر.

(1) فتاوى ابن تيمية؛ ج19، ص: (211) المصدر السابق؛ ص: (180).
(2) مختصر الصواعق لابن الموصلي (604).
(3) مجموع الفتاوى لابن تيمية؛ ج (13). ص: (118).
(4) درء تعارض العقل مع النقل (3/ 306) نقلا عن شموع النهار، عبد الله العجيري ص: (24).

سادساً: المبادئ العقلية.

سبق الحديث عن كثرتها وأنها لا تنحصر؛ ولكنها مع هذه الكثرة تعود إلى اثنيْن من المبادئ. وهما:

1 ـ مبدأ السببية.

فهو من أبرز هذه المبادئ الأولية الفطرية العقلية التي لقيَتْ تشكيكاً أو إنكاراً له في الخطاب الإلحادي المعاصر، فقد شكك الملحدون ومَن شاكلَهم المؤمنين في ثوابت عقيدتهم ودينهم بطعنهم في هذا المبدأ، واعتمدوا في خِطابهم واتّكاؤوا على مكتشفات العلم الحديث في تعليل وتفسير كافة الظواهر الكونية والطبيعية متنكرين تماماً لهذا المبدأ الذي هو من مركوزات النفوس ومَوْدُوعَاتها. وسوف أقف مع هذا المبدأ عدَّةَ وقفات؛ منها:

المقصود به: «ضرورة أن يكون لكلِّ حادثةٍ سبب»[1]، وهو: «المقصودة بالمبدأ الضروري القبلِي الأوَّلي، إذ تُقرر ضرورةً: أن يكون لكلِّ حادث سبب، وهي ضرورة عقلية لا يمكن تصور نقيضِها بمعنى: أنه لا يمكن تصور وجود حادث دون تصور أن يكون له سبب، كما لا يمكن الاستدلال لهذه الضرورة؛ لأنها من أوليات ما يدركه البشر في حياتهم العملية، بل هي من أعظم البواعث الفطرية في الطبيعة الإنسانية .. ويشتمل هذا المبدأ ثلاثةَ أمور ضرورية:

- **علاقة المسبَّب بالسبب**؛ وذلك بالنظر إلى المسبَّب من حيث هو مفهوم عام وكلية تتعلق بكل ما هو حادث، فهذا الأمر يدور حول الإجابة على السؤال الفلسفي القائل: (هل يُمكن أن يوجد الحادث دون محدِث؛ والمسبَّب دون سبب؟ بعيدا عن تعيين سبب معين)؛ فهذ الأمر يتعلق بمبدأ السببية من حيث هو مبدأ عقلي عام ويُطلق عليه "السببية العامة".
- **علاقة السبب بالمسبب.** وذلك بالنظر إلى السبب من حيث اقتضاؤه لمسبّبه ولزوم الاضطراد بينه وبين مُسبّبه؛ إذ يقرر ضرورة التلازم بين السبب ومسبّبه المعين ويُطلق عليه السببية النسبية.

(1) مدخل إلى نظرية المعرفة، الكرساوي، ص: (43).

- **علاقة السبب ومسبِّبه بغاية محددة وهدف معين.** فلكلِّ مُحدَث ومُحْدِثٍ ومفعولٍ وفاعلٍ غاية؛ ويُطلق عليه: السببية أو العلِّية الغائية»[1]. «فالفاعل كما أنه يحتوي على علَّة البدء بالفعل يحتوي كذلك على علة اتجاه الفعل؛ فالعلة الفاعلية مبدأ الحركة والعلة الغائية مبدأ قصد الحركة»[2].

ويجدر بنا أن نطرح هنا سؤالاً؛ طرحه د/ أحمد إبراهيم في كتابه "اختراق عقل"؛ وهو: «متى تنهدم السببية؟» فأجاب بما حاصله: «تنهدم السببية في حالة لو وجدنا شيئاً من هذا الكون لا تتغير صفاته ولا تزول بزوال أسباب وجودها؛ فسنعلم بذلك أنه لا يحتاج إلى شيء في وجوده، وكذلك تنهدم السببية لو وجدنا شيئاً ليس له حدود يعجز بعدها ولا يحتاج إلى الأسباب ليتصف بصفة لم تكن فيه وإنما هو قادرٌ دائما على الاتصاف بكل صفة وقادرٌ كذلك على فعل كلِّ شيء بدون الحاجة لامتلاك أسباب ذلك الفعل؛ فستنهدم حينها السببية»[3]. وهذا على الفرض الجدلي!. وإلا فلا سبيل إلى إثبات مثل ذلك.

يقول م/ عبد الله العجيري: «إن ضريبة التنكُّر لهذا المبدأ أشدُّ خطورة؛ فإنه إذا أمكن التشكيك بمبدأ السببية، وهو فِطريٌّ ضروري فبالإمكان التشكيك في بقية المباديء العقلية الضرورية ... فإذا كان العقل مقتنعاً بضرورة هذا المبدأ وقد سرى عليه التشكيك فما الذي يضمن أن بقية المباديء الفطرية سليمة من المعارضة والتشكيك». بل ومن الكلمات التي نقلها ـ العجيري أيضا ـ عن ابن رشد: «والعقل ليس هو شيء أكثر من إدراكه الموجودات بأسبابها، وبه يفترق عن سائر القوى المدركة فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل» وقال ـ ناقلاً أيضاً ـ عمن جحد تلك الأسباب: «والمتكلم بذلك إما جاحد بلسانه لما في جنانه وإما منقاد لشبهة سفسطائية عرضت له في ذلك»[4]. ومع ظهور هذه الضرورة العقلية إلا أنه قد وُجد في الوسط الفلسفي مَن يُنكِرها؛ ومِن أبرزهم:

---

(1) منهج ابن تيمية المعرفي ص: (351).

(2) العقل والوجود يوسف كرم؛ ص: (188) نقلاً عن المرجع السابق؛ ص: (364).

(3) الكتاب المذكور؛ ص: (61)، ط: مركز دلائل.

(4) أقوال ابن رشد من كتابه "تهافت التهافت" ص: (505) نقلاً عن: شموع النهار، ص: (124ـ 125) باختصار.
وإن كان من قوْلٍ يُضاف في هذه الجزئية؛ فأقول: لقد سعدتُ كثيراً بمناظرة الشيخ عبد الله العجيري للأخ عمر جبران الغامدي؛ ـ وهي على الشبكة ـ فقد ظهر فيها أهميةُ هذا المبدأ العقلي الأولى وكانت من الضربات القاصمة من

أبرز المُنكرين له وحججُهم:

اشتُهِر في الوسط الفلسفي أن **ديفيد هيوم**[1]. هو أول من أنكر مبدأ السببية؛ ولكن التحقيق العلمي يُبين غير ذلك؛ فيُبيِّنُ أنَّ الرجل نفسَه قد قال: «إنني لم أقرر البتة ذاك **الادعاء السخيف** أن شيئاً ما من الممكن أن ينشأ دون سبب»[2] بل أضاف الفيلسوف (ر. س. سبرول) قائلاً: «لم يُنكر هيوم قانون السببية.. قال إنه لا يوجد شيء من غير سبب لوجوده». ولكنه كان يتحدث عن أغلوطة "بعد هذا.. إذن بسبب هذا؛ فما نعرفه نحن من ظواهر العالم لا يتجاوز صور تتابعها **ولا يلزم من تتابع أمرين أن يكون أحدهما سبباً للآخر**"[3] ومع وضوح هذا الأمر عنه إلا أن الخطاب الإلحادي المعاصر ما زال مستخدما للأدلة التي ساقها ديفيد هيوم فيما ذهب إليه.

وكذلك من الحُجج التي استند عليها منكروا مبدأ السببية للطَّعن من خلال ذلك في قضية الوجود الإلهي؛ ما ذكره د/ أحمد إبراهيم، من ثمانية عشر حجة[4] استند إليها هؤلاء المنكرون. يقوم معظمها على الاستدلال ببعض الظواهر والمكتشفات العلمية وكذلك بعض القوانين المتعلقة بالطاقة أمثال: طاقة الفراغ، قانون حفظ الطاقة، وميكانيكا الكم، وقالوا ليس هناك سبب يجعل ذرة تنحل قبل الأخرى فكلها أمور عشوائية تماماً، وكذلك قالوا ليس هناك

وِجهة نظري أن قال الشيخ للأخ ـ تعقيبا على كلام قاله ـ حتى النبي صلى الله عليه وسلم لا يستطيع إثبات نبوته!!؛ إذا كان العلم ـ كما يزعم الأخ عمر ـ سيصل إلى تفسير لهذه المعجزة ولو بعد حين. بعيدا عن التصور الإلهي!!" فجزى الله خيراً مَنْ كان سبباً في تحصيلنا لأمثال هذه العلوم والتي ربما لم نسمع عنها لولا وُجودنا في هذا البرنامج.

(1) ديفيد هيوم(David Hume 1711 – 1776)، فيلسوف إنجليزي، مادي حسي، تجريبي، ملحد، ولد وتوفي بأدنبره، أهم كتبه: بحث في الطبيعة الإنسانية، ثلاثة أجزاء، وفحص عن الفهم الإنساني، وفحص عن مبادئ الأخلاق، والتاريخ الطبيعي للدين، وغير ذلك. راجع تاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم (172 – 173). من مقال بعنوان: (الأسس اللا عقلية للإلحاد ـ عمرو علي بسيوني) (https://www.braheen.com/mag/2nd/58-atheism-nonsense) في حين يرى أحد الباحثين أن هيوم ناقلاً لكلام أبي حامد الغزالي نصاً حول هذه القضية قضية السببية؛ مع اختلاف كلٍّ منهما في نقده لتلك القضية. مجلة كشف الأقنعة (البراهين) العدد الأول؛ مقال "السببية بين الفلسفة والعلم التجريبي" أ/ رضا زيدان. ص: (10).

(2) فمن خلق الله، د/ سامي عامري، ص: (31) ط: مركز تكوين.

(3) المرجع السابق. ص: (31، 32).باختصار

(4) اختراق عقل؛ ص: (67ـ 69)، وقد تولى الرد عليها جميعاً وخلاصة ردّه؛ ص: (147 ـ 154).

دليل على حدوث العالم في الماضي أو أنه ليس أزليا في المستقبل قائما بنفسه... وغير ذلك مما زعموا.

فالحُجج التي اتَّكاؤوا عليها قائمة على التفسير العلمي للظواهر الطبيعية؛ فكأن العلم بذلك أغناهم عن الاعتراف بوجود الخالق.

الرد عليهم:

إن العلم التجريبي لا يستطيع الوصول إلى كل التفسيرات التي تحدثُ لأجلها الأشياء من حولنا؛ فهناك مناطق عجز هذا العلم عن الوصول إليها؛ أمثال؛ قضايا: (الوعي والإدراك والقيم)[1]، وكذلك قضية "الروح" التي يسعى بها الإنسان بين الأحياء؛ ما كنهها؟ وما حجمها؟ وما أوصافها؟ وأين مستقرها من البدن؟. فهذه كلها مناطق عجز عن تسوُّرها العلم التجريبي!.

ولعلَّ مما يُرَدُّ به على هؤلاء، وكذلك لتوضيح عجز العلم التجريبي عن تفسيرات كثيرة نحن في حاجة إليها مثالُ: (كعكة العمة ماتيلدا)[2] أو (تورطة طنط هدى)[3]. وفِكْرة هذين المِثالين تقوم على كعكة أو تورطة؛ صُنعتْ من مواد لغرض معين؛ فعُلماء التغذية والفيزياء والرياضيات والكيمياء؛ كلٌّ واحد من هؤلاء سيُفسِّر هذا الأمر بما يُناسب مجالَه وتخصصَه فسيذكرون النِّسب الموجودة فيها من البروتينات والنشويات والمعادلات التي مرَّت بها هذه الكعكة... ولكن لا يستطيعون البحث عن الفاعل بداخلها! ولا يستطيعون الجواب عن العلَّة التي لأجلها صُنِعت! .. هذا من ناحية.. ومن ناحية أخري ـ ناحيةِ الأسباب المُوجدة لهذيْن المثالين ـ فلن يكون لهذا الكلام معنى: إذا قال قائل إن العمة "ما تيلدا" التي صنعتْ الكعكةَ

---

(1) وهذه القضايا الثلاث قد استشكلها على الخطاب الداروينى وأنه لا يستطيع تفسيرها **الفيلسوف البريطاني الملحد توماس نيجل** في كتاب بعنوان: (العقل والكون: لماذا التصور المادي النيو داروينى للطبيعة يكاد يكون خطأ قطعاً؟) وقد ذكر هذا الشيخ عبد الله العجيري في كتابه شموع النهار؛ ضِمن الاعتراضات على النتيجة: "الله هو من أحدث الكون من عدم"؛ فقرة: (لماذا التعجل فالعلم سيكشف لنا عن السبب) ص: (139 ـ 145).

(2) أقوى براهين د. جون لينُكس في تفنيد مغالطات منكري الدين، جمعه وعلَّق عليه م. أحمد حسن ، ص: (68، 69) ط: مركز دلائل.

(3) فيديو بعنوان: (ما هي العلل الأربعة أو الأسباب الأربعة) د/ هشام عزمي.
(https://www.youtube.com/watch?v=Zzdwt2UBxQo

لابن أخيها لم يكن لها أخ فضلاً عن أن يكون له ابن!! وكذلك التورطة التي صُنعتْ من طنط هدى؛ لا يُمكن أن يقولوا عنها "لم تُولد" حتى تتزوج ويأكل الجيران تورطتها!!.

فإذا كان للعلم التجريبي حدود ـ وهو كذلك ـ فلن يأتي بما يناقض العقول؛ فلن يقول قطٌّ لا يوجد صانع للكعكة أو التورطة، أو أنَّ صانَعهما بداخلهما، وكذلك سيعجز عن معرفة الباعث لصُنْعهما.

وعلى كلٍّ: فعملُ هؤلاء العلماء جميعاً هو الكشف عما حدث من التفاعلات والتراكيب؛ وليس هو إحداث لها من العدم. وهذا هو شأن العلم التجريبي.

وبعدُ .. فعلى كل حال إن: «إنكار السببية للفرار من وجود الله يهدم بنيان العلم الطبيعي والرياضي الذي يتشبث به كل ملحد في الوصول إلى الحقائق»[1].

2 ـ **مبدأ عدم التناقض.**

من المبادئ العقلية الضرورية هذا المبدأ؛ والمقصود به: «النقيض: ونقيض الشيء ما لا يجتمع معه لكن لا يرتفعان، فلابد من وجود أحدهما، **فالنقيضان ما لا يجتمعان ولا يرتفعان**، بل لابد من وجود أحدهما.

مثاله: **الوجود والعدم**. فهما نقيضان لأن المعدوم غير موجود، والموجود غير معدوم. ولا يمكن أن يجتمعا، وكذلك لا يمكن أن يرتفعا، فلا يمكن أن يكون الشيء لا موجوداً ولا معدوماً، بل لابد أن يكون إما موجوداً وإما معدوماً.

ومثل ذلك: **الحركة والسكون**، فهما نقيضان؛ لأنهما لا يجتمعان ولا يرتفعان، لأنه ما من شيء إلا وهو متحرك أو ساكن ولابد»[2]. ويُقال: «التناقض: كون القضيتين لا تجتمعان ولا ترتفعان» فلا يمكن أن يكون حياً وميتا في الوقت نفسه، كما لا يمكن أن يكون غير حي وغير ميت في الوقت نفسه .. فكلُّ قضيتين يستحيل أن تجتمعا معاً أو ترتفعا معاً فإننا

(1) السببية بين الفلسفة والعلم التجريبي؛ أ رضا زيدان ص: (13) مجلة كشف الأقنعة.
(2) شرح العقيدة السفارينية لابن عثيمين ص: (734، 735) ط: مدار الوطن. ويُنظر: مصطلحات في كتب العقائد، د/ محمد بن إبراهيم الحمد: (141).

نحكم عليهما بأنهما متناقضتان. وأما إذا لم تقبلا الاجتماع لكنهما تقبلان الافتراق فإنهما من باب التضاد[1]. وبناءً على ذلك؛ فلا يوجد وسط بين النقيضين وهو مبدأ الثالث المرفوع[2]. فالحركة والسكون والموت والحياة والوجود والعدم .. وغيرها من المتناقضات التي إذ وُجد أحدها في محل ذهب الآخر؛ هذه كلها وغيرها لها أهمية كبيرة في التأسيس المعرفي لدى الإنسان.

ولأهمية هذا المبدأ في تكوين المعارف الإنسانية يقول ليبنتز: «**براهينُنا مؤسسة على مبدأين عظيمين. مبدأ عدم التناقض** الذي بفضله نحكم ببطلان كل ما هو متناقض وصدق كل ما يعارض أو يناقض ما هو باطل، **ومبدأ العلة الكافية** الذي به لا نعدّ أي واقعة قائمة في الواقع .. ما لم يكن لها علة كافية تبين لما كانت الواقعة أو القضية على ما هي عليه ولم تكن على نحو آخر، على الرغم من أن هذه العلل في معظم الحالات تظل خافية علينا»[3].

سابعاً: موقع المبدأ الأوّلي في عملية الاستدلال العقلي.

الاستدلال بالدليل العقلي يمر بمراحل ثلاث لابد من مراعاتها؛ وهي: «التصور العقلي الصحيح لأمرين على حقيقتهما، ثم الاستدلال الصحيح على العلاقة بينهما وتشمل هذه **المرحلة المبادئ العقلية**؛ فإنها مُسلَّمات عقلية يُستدل بها ولا يُستدل عليها، ثم الحكم الصحيح على العلاقة بينهما إثباتاً أو نفياً"[4]

فإن العقل: يتصور المعينين أولا؛ وهما: الأصل والفرع، ثم ينتقل إلى لازمهما وهو المشترك، ثم إلى لازم اللازم وهو الحكم[5]»[6].

---

(1) مقدمة في علم المنطق د/ نايف بن نهار، ص: (110) مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث. قطر.
(2) منهج بن تيمية المعرفي، الدعجاني. ص: (344).
(3) أبحاث جديدة في الفهم الإنساني؛ ليبنتز ص: (76). نقلاً عن المعرفة في الإسلام د/ القرني. ص: (298).
(4) المعرفة د/ عبدالله القرني؛ ص: (305). ومنهج بن تيمية المعرفي د/ عبد الله الدعجاني ص: (337).
(5) الرد على المنطقيين لابن تيمية (121).
(6) المدخل إلى علم العقيدة زياد بن حمد العامر، ص: (157).

ثامناً: الحقلُ الشرعي والمبادئ العقلية الأولية.

إن الناظر في الخطاب الشرعي ـ قرآنٍ أو سنّةٍ ـ ليجد فيهما اهتماماً واستدلالاً بتلك المبادئ الأولية، وكذلك الأمور العقلية عموماً في تكوين وتأسيس البناء المعرفي لدى الإنسان على وجه العموم؛ ولدى المُسلم على وجه الخصوص.

فقد خاطب القرآن الكريم أقواما ليسوا بمُسلمين؛ واحتجَّ عليهم بما هو من مُسلمات عقولهم، وأنهم إذا أهملوا لوازمَ تلك المُسلمات فقد سلبوا عن أنفسهم وصف العقل، فمثلاً:

عن قضية الربوبية والخلق والنفع والضر؛ قال الله تعالى في قصة الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء] فمَن لا ينفع ولا يضرُّ ولا يسمع ولا يُبصر كيف يُعبد أو يُخضع له!؟. فأين العقول التي أسلمتْ قيادَها وأخضعت جوارحها لمعبودٍ هذا وصفه؟ لا شك أنهم كما وُصفوا: (أفلا تعقلون)، فهل يُطلب من الأصمِّ أن يُجيب دعاء من ناداه؟ أو هل يُرتجى ممن عجز عن نفع نفسه أن ينفع غيره؟ «أيْ أُفٍّ لِأجْلِكم ولِلْأصْنامِ الَّتِي تَعْبُدُونَها مِن دُونِ اللَّهِ .. وفَرَّعَ عَلى الإنْكارِ والتَّضَجُّرِ اسْتِفْهامًا إنْكارِيًّا عَنْ عَدَمِ تَدَبُّرِهِمْ في الأدِلَّةِ الواضِحَةِ مِنَ العَقْلِ والحِسِّ فَقالَ (أفَلا تَعْقِلُونَ)»[1]. لأنهم حينئذ قد جمعوا في عقولهم بين المتناقضات.

وعن قضية النبوّة وإثباتها للنبي محمد صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس] فأين هذا الطلبُ مِمَّن هو عندهم صادق أمين؛ لم يُجربوا عليه الكذب، وقد لَبِث فيهم دهراً طويلاً على ذلك؛ فعندما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (أرَأَيْتُمْ إنْ أخْبَرْتُكُمْ أنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِن سَفْحِ هذا الجَبَلِ، أكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا: ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا) [صحيح البخاري]، وقد أقرَّ بذلك رجلٌ من عقلائهم ـ وهو: أبو سفيان بن حرب عندما

(1) يُنظر: تفسير التحرير والتنوير الطاهر بن عاشور.

سأله هرقل عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (فَهلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أنْ يَقُولَ ما قَالَ؟ قُلتُ: لَا، ..) ثم علل هرقلُ سؤالَه بقوله: (وسَأَلْتُكَ: هلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أنْ يَقُولَ ما قَالَ، فَزَعَمْتَ أنْ لَا، فَعَرَفْتُ أنَّه لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ علَى النَّاسِ، ثُمَّ يَذْهَبُ فَيَكْذِبَ علَى اللَّهِ)[1] [صحيح البخاري].

وكذلك قد وصف اللهُ تعالى النبيَّ صلى الله عليه وسلم بوصف من لوازمه ـ عقلاً ـ أن يُذعنوا له عليه الصلاة والسلام وينقادوا؛ وهو وصف "الصاحب" الذي يعلمون به ما يعلم الصاحب عن صاحبه فقال جلَّ ذكْره: ﴿أَوَلَمْ **يَتَفَكَّرُواْ** مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف]؛ فأين هي العقول التي هي آلةُ التفكُّر والاعتبار؟ فكيف يصفون إنسانا بالجنون وكلامُه وحديثُه وبيانُه هو في غاية الهداية والإعجاز والبلاغة؟ ويزداد الأمر إيضاحا على غياب تلك العقول = إذا لم يطلب على تبليغه وتعليمهم ما فيه نجاتُهم؛ أجراً. فهُمُ المنتفعون والرابحون في الدنيا والآخرة؛ فقد قال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ **مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ** إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ]. وقد قال أيضاً: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء]. فالشرف والعِزُّ في اتباع هذا القرآن الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم والذي قد رأوْا بوادرَه أمام عيونهم من تمكينٍ للمسلمين وإعزازٍ لهم.. وإلا فلا عقل لهم ينفعهم ويهديهم إلى ما فيه فلاحهم. وقال أيضاً سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير]. فهل هذا الصاحب الذي لم يُتَّهم في عقل ولا أمانة ولا حديث؛ يكون مجنونا؟.

وكذلك في مقام النبوة والإسلام يأتي الخطاب القرآني موبِّخاً قوماً نسبوا الخليلَ إبراهيم إلى التوراة أو إلى الإنجيل؛ وقد نزلا بعده بأزمان مُتباعدة؟ فهل يجوز في العقول أن يُنسب الشخص إلى شيء لم يَشهده بل كان بعده لا قبله؟؛ بل وكان هذا الشيء على خِلاف ما جاء به ودعا إليه؟ فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ **وَمَآ أُنزِلَتِ**

(1) وهذا الحوار كلُّه استعمالٌ لبدائه العقول ودلالتها لِمَن تدبَّر.

ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ **مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا** وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران].

وإذا كانت هذه النصوص بما تحمله من معانٍ؛ إنما هو مِن دلائل القرآن الكريم، فهل كانت السنَّة النبوية بمعزلٍ عن الاستدلال بهذه المبادئ العقلية الأولية؟.

فلْننظُر في هذين الخبرين:

أولاً: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أنَّ رَجُلًا كانَ **يُتَّهَمُ بأُمِّ وَلَدِ** رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ لِعَلِيٍّ: **اذْهَبْ فَاضْرِبْ عُنُقَهُ** فأتَاهُ عَلِيٌّ فَإِذَا هو في رَكِيٍّ يَتَبَرَّدُ فِيهَا، فَقالَ له عَلِيٌّ: اخْرُجْ، فَنَاوَلَهُ يَدَهُ فأخْرَجَهُ، **فَإِذَا هو مَجْبُوبٌ ليسَ له ذَكَرٌ، فَكَفَّ عَلِيٌّ عنْه**، ثُمَّ أَتَى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، فَقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّه لَمَجْبُوبٌ ما له ذَكَرٌ) [أخرجه مُسلم][1]. فهذه الواقعة فيها أمرٌ نبوي ـ واجب الامتثال ـ بقتْل هذا الذي كانت منه الرِّيبة؛ ولكن السبب الذي هو من لوازم تلك الريبة مفقود فلا تتأتى منه مع فقدانه؛ فهو مجبوب ليست عنده آلة الرجال "ليس له ذكر" فكيف يُقتل مع هذه الحال؟! وإلا فقد قلنا ببطلان قانون السببية.

ثانياً: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَعَثَ جَيْشًا، وأَمَّرَ عليهم رَجُلًا فأوْقَدَ نَارًا وقالَ: ادْخُلُوهَا، فأرَادُوا أنْ يَدْخُلُوهَا، وقالَ آخَرُونَ: إنَّما فَرَرْنَا منها، فَذَكَرُوا للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ لِلَّذِينَ أرَادُوا أنْ يَدْخُلُوهَا: لو دَخَلُوهَا لَمْ يَزَالُوا فِيهَا إلى يَومِ القِيَامَةِ، وقالَ لِلْآخَرِينَ: لا طَاعَةَ في مَعْصِيَةٍ، إنَّما الطَّاعَةُ في المَعروفِ) [صحيح البخاري]. فهذا الأمير له طاعةٌ واجبة؛ ولكنَّها مُكتَسبةٌ من تأمير الرسول صلى الله عليه وسلم إياه على هؤلاء، ولكن لو سمعوا له وأطاعوا في كل أمرٍ؛ لا سيما هذا الأمر فقد خالفوا مخالفة شديدة، وبسببها ـ لو حدثتْ ـ سيقعون في تناقض بيِّنٍ!. إذْ كيف يدخلون النار بأمره وقد اتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم حتى يُنجِّيهم منها، فهو جمع بين النقيضين.

(1) في ظنِّي أن هذا الحديث والذي بعده يصلحان شاهدا لتعارض الأدلة " الطقعي ـ وهو هنا الدلالة العقلية ـ والظنِّي وهو "هنا الأمر النبوي"، فهنا يُقدَّم الدليل ذي الدلالة العقلية لكونها قطعيةً على الدليل النقلي لكون دِلالته ظنية.

فالدلائل والمبادئ العقلية الأولية لا يُخالفُ مقتضاها الشرعُ؛ لأنه حينئذ سيُخالف حجةً شرعيةً يقينيةً قطعيةً؛ فقد قال ابن تيمية: «**ما عُلم فسادُه بالعقل لا يجوز أن يُعارَضَ به لا عقلٌ ولا شرعٌ**»[1]. حتى قال تلميذه ابن القيم عن حِيل بعض النساء على أزواجهنَّ: «إذا ادّعتْ عليه المرأةُ أنه لم يُنفق عليها، ولم يَكْسُها مُدّة مُقامها معه أو سنينَ كثيرة، **والحِسُّ والعُرفُ يكذّبها، لم يَحِلّ للحاكم أن يسمع دعواها**، ولا يطالبه بردّ الجواب؛ فإن **الدَّعوى إذا ردّها الحِسّ والعادةُ المعلومة كانت كاذبة**»[2]. فما عُلِم فساده بالعقل أو بالحس أو بالعرف هي من الدلائل اليقينية التي جعلها الله تعالى في فِطر بني آدم ومكنونات نفوسهم فلا يصح والحالة هذه أن يأتي الشرع بما يُخالف هذا المكنون.

(1) درء تعارض العقل مع النقل، ابن تيمية، ج1، ص: (194).

(2) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، ج2، ص: (743)

وفي الختام:

هذا آخر ما تيسَّر جمعه حول هذا الموضوع؛ والذي ظهر من خِلاله أن هذه المبادئ الأولية التي جعلها الله تعالى في الإنسان هي بمثابة الأسس التي يبني عليها الإنسان بُنيان معارفه ومعلوماته، فهي أدلَّةُ الدلائل والبراهين ومع ذلك فلا دليل عليها، فالتشكيك فيها تشكيكٌ في العلوم جميعها يقينية كانت أو ظنيةً، بل وهو تشكيك في الخاصة التي ميَّز الله تعالى بها بني الإنسان وهي العقول!!.

ثمَّ .. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزي القائمين على هذا البرنامج **(صناعة المُحاور)** خير الجزاء؛ فلقد ولجْنا على أيديهم مباحث علمية ما كان لنا أن ندخل فيها لولا هذا لبرنامج وهذا بعد فضل الله تعالى وعونه وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين على توفيقه

الفهرس

المسلسل	الموضوع	رقم الصفحة
*	المقدِّمة	2
أولاً	تعريف المبادئ العقلية الأولية.	8
ثانياً	مصدرية هذه المبادئ	10
ثالثاً	ما هي هذه المبادئ؟.	12
رابعاً	أوصافٌ لازمة لهذه المعارف	14
خامساً	نِسبية هذه المعارف	15
سادساً	**المبادئ العقلية:**	17
	1 ـ مبدأ السببية.	17
	2 ـ مبدأ عدم التناقض.	21
سابعاً	موقع المبدأ الأوّلي في عملية الاستدلال العقلي	22
ثامناً	ثامناً: الحقلُ الشرعي والمبادئ العقلية الأولية.	23
تاسعاً	في الختام	27
	الفهرس	28

البريد الإلكتروني:

(ahmedhelmey1983@gmail.com)

وكان الفراغ منه ليلة التاسع والعشرين من شهر شعبان لعام ألف وأربعمائة وخمسة وأربعين من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم

(قرقيرة/ السنبلاوين/ دقهلية / مصر)